مجلة العلوم الانسانية الدولية، ١٤٣٣/٢٠١٢ هـ.ق، العدد ١٩ (١) ٥٧-٧٧

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:39 IRDT on Monday August 31st 2020

استدعاء الشخصيات التاريخية والأسطورية في مقصورة حازم القرطاجني

علي باقر طاهري‌نيا[١]، مريم رحمتي تركاشوند[٢]، روح‌الله مهديان طرقبه[٣]

تاريخ الوصول: ١٤٣١/١٢/٢ تاريخ القبول: ١٤٣٢/٥/٢٨

توظيف الشخصية التراثية في العمل الأدبي يسبب توليد العلاقة الأدبية بالتراث، لأنّ التاريخ بما فيه من الأحداث والتطورات من مكونات الهوية والشخصية الإنسانية، حيث يجعل الفرد يفتخر بماضيه أو يتحسر عليه. أضف إليه أن قابلية التكرار للأحداث التاريخية تجعلها حية فاعلة في ذاكرة الإنسان.

ومن كبار الأدباء الذين أحيوا التراث التاريخي والأسطوري وذكروا أسماء الشخصيات في آثارهم حازم القرطاجني، حيث عرض التاريخ العربي وماضيه عرضاً فنياً في مقصورته، واستدعى الشخصيات التاريخية والأسطورية من ماضي حضارة العرب القديمة ووظّفهم بأسمائهم أو ألقابهم أو كنيتهم أو ببعض أحداث حياتهم، وهو يهدف من خلال هذه الرموز إلى التعبير عن الدلالات المعاصرة.

يعالج هذا البحث خلال المنهج التاريخي و الوصفي دراسة مقصورة القرطاجني حيث تدل النتايج على أنّ الشخصيات التاريخية والأسطورية المهمة التي استدعاها حازم القرطاجني في قصيدته، هي شخصية سيف بن ذي يزن، و عمرو بن سعيد، و دريد بن الصمة ، و جحاف بن حكيم، و الحجاج بن يوسف، و زيد بن علي، و عبد الرحمن بن الأشعث، و عمرو بن المنذر، و زرقاء اليمامة، و زبراء الكاهنة ... وليس هذا الحشد اللافت لتلك الشخصيات التاريخية والأسطورية من لدن صاحب المقصورة سوى مظهر من مظاهر عناية حازم القرطاجني بتاريخ العرب المجيد وأساطيرهم القديمة أثناء صياغته لها حيث يوظفها توظيفاً جمالية و رمزية و إنسانية.

الكلمات الرئيسية: الاستدعاء، حازم القرطاجني، التراث التاريخي، المقصورة.

---

١. أستاذ مشارك في فرع اللغة العربية وآدابها بجامعة ابن سينا. btaheriniya@basu.ac.ir

٢. طالبة دكتوراه بجامعة ابن سينا.

٣. طالب دكتوراه بجامعة ابن سينا.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:39 IRDT on Monday August 31st 2020

١– مقدمة

من الظواهر النقدية الجديدة ما «يعتمد على الإلتفات والاتكاء على نموذج إنساني ملتحم مع حدث تاريخي أو أسطوري، فيقوم الشاعر بتوظيفه ضمنياً كمحور أو إشارة أو دلالة، مستغلاً ما تعنيه تلك الشخصية من إيحاء وما تصنع من أجواء تعمق الفهم للقصيدة، على أن تكون تلك الشخصية ذات نزوع تأثيري واضح» (عسيري، ٢٠١٠: ١). سمّي هذا الحضور الشعري للرموز القديمة في النقد الحديث بـــ«الإستدعاءات التراثية» وإذا كانت الرموز شخصيات تاريخية أو قصصية وأسطورية سمّيت بـــ«استدعاء الشخصيات» عني النقاد بهذه الاستدعاءات ضمن ظاهرة «التناص» كآلة فنية مؤثرة لغناء الشعر وتوليد الصور البديعة وإبراز ما في الشعر من أفكار وهواجس نفسانية وصلته بالنصوص الأخرى أو التراث، وعدّوه مقدرة فنية للشاعر وميزة أساسية لشعره (ميرزايي، ١٣٨٩: ٢) والشاعر باستدعائه هذه الشخصيات التاريخية والأسطورية يعمد إلى «تجربة غنية أصيلة وشاملة» (عشري زايد، ٢٠٠٦: ١٧) تمكّنه – في الوقت ذاته – من الخروج عن «نطاق ذاتيته المغلقة إلى تجربة الإنسان في هذا العصر وفي كلِّ العصور» (حاوي، ١٩٦٢: ١٦٤). و الاستدعاء قد يكون اجتراراً أو امتصاصاً أو حواراً.

يبدو أنّ استدعاء الشخصيات من أكثر الموضوعات غنى وثراء من الناحية المضمونية والفنية، وحازم القرطاجني –الشاعر والناقد الأندلسي الشهير– كباقي الشعراء وجد في هذه الظاهرة النقدية إحدى الأساليب الفنية التي جسّد من خلالها تجاربه الشعرية وفكرته الخاصة؛ لأنّ استدعاء الشخصيات بالنسبة إلى الشاعر ليس مجرد ذكر الشخصية أو الإخبار عنها فحسب؛ ولكنه المعرفة الواعية بملامح تلك الشخصية وأبعادها الدلالية، ثم المقابلة بين تلك الشخصيات وأحداثها في الماضي والشخصيات المعاصرة وأحداثها الراهنة. عبَّر حازم القرطاجني في مقصورته – التي تحتوي على ألف وثلاثة أبيات – عن واقع عصره من خلال الشخصيات التاريخية والأسطورية المستدعاة. وهكذا نعلم بأننا إزاء شاعر موسوعي المعرفة وعميق الفهم ومثقف بثقافة تاريخية وأسطورية وسيعة، ويولّد لنا الشاعر لحظة وعي بالتراث، باستلهامه هذا التراث والتفاعل معه وربطه بقضاياه وقضايا عصره وباتخاذه مادة تراثية يعطي إنتاجه الأدبي أصالة وغنى وشمولاً. هذا المقال يعالج البحث من خلال نظرته العابرة على الدراسات السابقة حول الموضوع وظاهرة استدعاء الشخصية، ثم على حازم القرطاجني ومقصورته الشهيرة ودراسة استدعاء الشخصيات التاريخية والأسطورية في المقصورة.

٢– خلفية البحث

هناك دراسات حول ظاهرة استدعاء الشخصيات منها – على سبيل المثال – كتاب «استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر» لِعلي عشري زايد، «توظيف التراث في شعرنا المعاصر» المنشورة في مجلة ومقالة «استدعاء الشخصيات الساسانية في شعر البحتري» للدكتور فرامرز ميرزايي المطبوعة في مجلة العلوم الإنسانية الدولية — العدد ١٧عام ١٣٨٨هـــ.ش، و«استدعاء شخصيَّة المعريّ في الشعر العربي الحديث والمعاصر (بين الواقع والتجريد)» لعصام شرتح المطبوعة في مجلة التراث العربي العدد ١٠٨ و...، وأيضاً هناك دراسات حول حازم القرطاجني وآرائه النقدية – خاصة كتابه «منهاج البلغاء وسراج الأدباء»– ومنها مقالة «مظاهر الطبيعة في شعر حازم القرطاجني» للدكتور عيسى فارس المطبوعة في مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، سلسلة الآداب والعلوم

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:39 IRDT on Monday August 31st 2020

الإنسانية المجلد (٢٧) العدد (٢) ٢٠٠٥، و غيرها من الدراسات التي تناولت آراء حازم القرطاجني و آثاره، أما حول مقصورة حازم القرطاجني، خاصة استدعاء الشخصيات التاريخية والأسطورية في مقصورته فلم نجد بحثا يذكر.

٣- ظاهرة استدعاء الشخصيات

إنَّ ظاهرة استدعاء الشخصيات التاريخية في الشعر، ظاهرةٌ نقدية جديدةٌ عُني بها النقاد ضمن ظاهرة «التناص» النقدية حيث أصبحت سمة بارزة لتحليل الخطاب الشعري (ميرزايي، ١٣٨٤: ٦٢) واستدعاء شخصيات التراث بالنسبة للشاعر ليس مجرد ذكر للشخصية أو الإخبار عنها فحسب، ولكنه المعرفة الواعية بملامح تلك الشخصية وأبعادها الدلالية، «ثم التشبع بتلك المعرفة واختزانها في الذاكرة، والعقل الباطن، وإدخال تلك الدلالات والمضامين واحتواؤها في قرارة النفس، ومن ثمَّ المقابلة بين تلك الملامح والقضايا التي يعيشها الشاعر في واقعه، ثم التعبير عن هذا الواقع من خلال الشخصية المستدعاة بطرائق تعبيرية تبتعد كثيراً عن مجرد ذكر الشخصية، أو سرد أحداثها، كما وردت في كتب التاريخ والتراث» (السويكت، ٢٠٠٩: ١).

ثمة علامات فارقة تميّز نوعين مختلفين من أنواع قصائد استدعاء الشخصيّات التراثـــيّة، أحدهما يمثّل استدعاء الشخصيّات التاريخية أو الأسطورية استدعاءً موازياً لشخصيّة الشاعر، يكون فيه الشاعر في موقع والشخصيّة التراثـــيّة في موقع آخر تفصلهما مساحات واضحة. ويطلق على هذا النوع من القصائد «قصائد استدعاء الشخصيّات التراثيـــّة»، ويكون فيها دافع الإستدعاء، المماثلة أو المخاطبة أو الإستشهاد. في حين تتسم خصائص النوع الآخر بالإنصهار؛ لأنّ شخصيّة الشاعر تتطابق مع الشخصيّة التراثيـــّة المستدعاة، ليعكسا معاً في بوتقة واحدة شخصية موحدة في النص تشكّل القناع الذي يبرز ناتجاً عن تقمص الشاعر للشخصيّة المستدعاة تقمصاً كليّاً في الصوت والتجربة، تلك التي يتقمصها هو بوعيه، ليكون القناع مرآة عاكسة لعلاقة "ذات" الشاعر بالذات الأخرى. وعلى الرغم من أن هذا الشكل من أشكال الإستدعاء قد خرج من صلب الشكل الأول، فقد جاء محمّلاً بخصائص مغايرة ومتطورة عليه، واتسم بخصائصه الفنيّة الخاصة، لذلك أطلق عليه "قصائد الأقنعة الشعرية".. (ياسين السليماني، ٢٠٠٧: ٥) و في قصيدة الإستدعاء العادية تتفاوت درجات ظهور الشخصيّة المستدعاة واختفائها، فقد تظهر إشارةً تاريخيّة في شكل استدعاء اسم الشخصية، أو قد يرد ذكرها وروداً إشكالياً يعكس ارتباط هذه الشخصيّة بموضوعٍ لطالما رغب الشاعر في تناوله شعرياً، وتختلف مجالات الاستدعاء للشخصيّة التراثيّة في حالة المخاطبة مساحةً واستحواذاً في النص. قد يكون الإستدعاء لمخاطبة الشخصية من خلال تجربتها التراثيّة الشاملة، فتأخذ هذه الشخصيّة مساحات واسعة من النص، محافظة على انفصالها عن شخصية الشاعر. وهنا تكون هذه الشخصية محكياً عنها، وتكتفي بالصمت والإستماع لما يقوله الشاعر، دون أن تبدي أية مشاركة أو معارضة أو تدخُّل في بناء القصيدة، وتكون الشخصيّة في ضوء ذلك شخصيّة صامتة ومستمعة فحسب، ويكون الاستدعاء لرد تجربة هذه الشخصيّة، أو قد يكون لمخاطبتها وللإستشهاد بتجربتها في آن واحد (م.ن: ٦). فالشاعر يرتبط بهذه الرموز التاريخية لتحيلها إلى صورة أدبية دالة على ما في ضميره من أحاسيس وأفكار لأنّ هذه المعطيات التراثية تربط الشاعر بقرّائه، لما لها من حضور حي ودائم في وجدانهم، فاستعادة التجربة التاريخيّة يأتي في هذا الموضع لتقديم التجربة المعاصرة ليؤكد الشاعر تجربته باستحضار هذه الشخصيات التراثية.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:39 IRDT on Monday August 31st 2020

و هناك ملاحظة فيما يرتبط بالشخصية المستدعاة وعلاقتها بالموضع الذي ترد فيه. وهي أن تجربة الاستدعاء يشوبها أحياناً أخطاء وملابسات، أبرزها «غربة الشخصية المستدعاة من وعي المتلقي، والغموض، والتأويل الخاطئ لبعض الشخصيات» (عسيري، ٢٠١٠: ٣). وعلى الشاعر تجنّب هذه المزالق، كما ابتعد عنها حازم القرطاجني في مقصورته إلى حد بعيد.

يمكن دراسة ظاهرة استدعاء الشخصيات علي مستويات مختلفة، منها المستوى الصوتي أو الخصائص الموسيقية للألفاظ. فجماليات الاستدعاء المكتنـــزة في مستواها الصوتي يمكن البحث عنها في أنواع التكرار والجناس والجهر والهمس و... (السويكت، ٢٠٠٩: ٥). وهناك أساليب متنوعة تستطيع أن تتضمن ظاهرة الإستدعاء؛ مثل: الإستفهام، والنفي، والشرط، والنداء، والتمني، والأمر، و... وهناك أيضا أنماط مختلفة لتوظيف الشخصية المستدعاة ؛ منها:

١- توظيف الشخصية باسمها المباشر، أو لقبها، أو كنيتها، أو المزاوجة بين أكثر من صيغة.

٢- توظيف الشخصية بصفة من صفاتها.

٣- توظيف الشخصية ببعض أقوالها، كما درست ظاهرة التناص.

٤- توظيف بعض أحداث حياتها.

٥- ربط الشخصية بالمكان الذي اشتهرت به (م.ن ٦).

٤- حازم القرطاجني (٦٠٨-٦٨٤ هـ.ق) ومقصورته.

أبو الحسن، حازم بن محمد بن حسن بن محمد بن خلف بن حازم الأنصاري القرطاجني، ولد في قرطاجنة الواقعة على البحر المتوسط في الجنوب الشرقي للأندلس، وعني أبوه بتربيته فحفظ القرآن، وشبَّ فأخذ يتلقي الآداب والعلوم في بلدته، ثم رحل منها إلى مدينة مرسية ليأخذ عن شيوخها، ثم سافر إلى إشبيلية وشارك في حلقات درس أستاذه الشلوبين، «وكانت فيه نزعة إلى الفلسفة فأوصاه بقراءة كتب ابن رشد» (ضيف، لا تا: ٢٤٩). وهاجر في أواخر العقد الثالث من حياته إلى مراكش ومدح الرشيد الموحدي ونال صلاته. وأحس أنّ دولة الموحدين على وشك الإنهيار، فاتجه - مثل الكثير من معاصريه الأندلسيين - إلى تونس وإلى حضرة أبي زكرياء الحفصي، صاحب تونس، ثم ابنه المستنصر. واتخذ حازم تونس موطناً له حتى وفاته في ٢٤ رمضان سنة ٦٨٤ هـــ (القرطاجني، ١٩٦٦: ٤٥-٥٩).

ويُعد حازم أحد أدباء الأندلس وعلمائه البارزين في مجال الشعر والنقد، ذاك أنّه «درج على ملاعب الحياة ستاً وسبعين سنة. وانبجست شاعريته في ميعة صباه، فعزف على قيثارة الشعر والنقد سبعة عقود ونصف، عزف عليها ناقداً حاذقاً بليغاً، وشاعراً مصداحاً، جلّى تجربته الشعرية، بل الشعورية في ديوان ومقصورات يستحق بسببها أن يسمى بصاحب المقصورات، قياساً على صاحب المقامات (الهمذاني)» (فارس، ٢٠٠٥: ٨٧). لقد انتزع صوره الفنية من عناصر الكون المختلفة التي امتازت بأشكال وصيغ التعبير المتعددة، وتنوعت أساليبه التعبيرية من خلال استخدامه للصورة الفنية المعبرة عن طبائع النفس، وأغراض الحياة، وأهواء القلوب، تسعفه ثقافة غزيرة، حيث «بلغ سمت الثقافة، وذاكرة قوية، وخيال جدّ خصيب ضرب به المثل، وتجربة شعورية يعيشها في دواخله، تصهر ما أدركته حواسه، مع ما يشعر به من هواجس وانفعالات نفسية يتشكل منهما نسيج الصورة الفنية الملونة بريشة الأسطورة حيناً، وباستيحائه رموزاً تاريخية مستقاة من تراثه العربي الإسلامي خاصة، ومن التراث العالمي عامة حيناً آخر، تداعى له بثقافة واسعة، وبصيرة واعية» (م.ن: ٨٧-٨٨).

كان وقته موزعاً بين العمل في ديوان المستنصر وبين محاضراته للطلاب والتأليف ونظم الشعر. وتحدّث الدكتور

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:39 IRDT on Monday August 31st 2020

محمد الحبيب بن الخوجة عن شعر حازم في مقدمة كتاب منهاج البلغاء وذكر أنّه قد يتصنّع لذكر بعض المصطلحات العلمية أو المحسنات البديعية في شعره. وأغراضه موزعة بين الزهد ووصف الطبيعة والخمر والنسيب، كما أن له قصائد في رثاء الحسين (ع) ومدح الرسول (ص) وأبي زكرياء الحفصي وابنه المستنصر خاصة. لكن أزخر مادة من بين آثار حازم الكثيرة المتنوعة، مقصورته، فهي غنية فريدة بما اشتملت عليه من معلومات دقيقة عن الظروف التي يعيش فيها حازم بمسقط رأسه وبالمغرب العربي. وذكر حازم في مقدمة مقصورته أنّه عارض بها مقصورة ابن دريد «ما هذه القلادة المنظومة، و الروضة الممطورة، إلا قصيدة من الرجز غير مشطورة، عارضت بها قصيدة أبي بكر بن دريد المقصورة» (الشريف السبتي، ١٩٩٧: ١٤٤).

أما مصطلح المقصورة فيطلق على كل قصيدة يكون رويها ألفا لينة (م.ن: ٨٠)، وأقدمها مقصورة ابن دريد في مدح ابني ميكال التي نظمها في ٢٥٣ بيتاً، فكانت أنموذجاً لشعراء المقصورات الذين نظموا في هذا الفن بعد ابن دريد. وقيل أنّ الحلواني قد سبق ابن دريد في هذا الفن بمقصورته في تسعين بيتاً يمدح فيها محمد بن زيد الداعي الحسني. قد تحفظ لنا المقصورات أسماء معاهد وآثار، ولاسيما مقصورة حازم، إلا أنّ هذه المعاهد اندثرت مع الزمن وامتحت معالمها، وتغيرت أسماؤها، و لم تعد بالنسبة لنا اليوم إلا ذكريات جميلة «تذكرنا بمجد العرب في الفردوس المفقود» (م.ن: ٩٢). وقد وجد الشعر العربي في عصوره المختلفة قصائد مقصورة تناول فيها الشعراء أغراضاً متعددة، وهي منظومات نظمت في بحر الرجز وكثيراً ما قيلت في غرض واحد وهو المدح، ولكن أصحابها تطرقوا فيها إلى أغراض أخرى كالغزل ووصف الرحلة، والحكمة والموعظة، وتجارب الشاعر في الحياة، ووصف معالم بيئتهم، كما نجد ذلك في مقصورة حازم. فقد أضاف أصحابها لغرض المدح شأن القصائد الطوال المنظومة في البحور العروضية الأخرى كالمعلقات مثلا، ذكر الأحداث التاريخية والوقائع والمشاهد، كما أنّها مُلئت بالحكم والأمثال والمواعظ.

فالمقصورات تلعب دورا موسوعياً في ساحة الشعر العربي. حيث أنّها تنطوي على معلومات كثيرة حول مواضيع شتّى، كما تشمل المضامين الوعظية والحكمية ، وقد قال مالك بن المرحل عندما قرأ مقصورة حازم: «لا أقول إنّ هذا شعر ولكن أقول هو ديوان علم» (م.ن: ١١٥). فقد اتخذ حازم القرطاجني لمقصورته – التي تشتمل على الف وثلاثة أبيات في بحر الرجز – مقدمة في الغزل في خمسين بيتا، ثم تطرق إلى ذكر محاسن محبوبته ووصف الطبيعة والبساتين والمدن في خمسمائة بيت، ثم الشكوى من الدهر والفخر والإشارة إلى الأحداث التاريخية والأسطورية في أكثر من أربعمائة بيت. ولكن تميزت مقصورته بذكر الأحداث التي جرت في الأندلس بين المسلمين والنصارى، مثل وقعة «الأرك» الشهيرة التي حدثت في عهد يعقوب المنصور الموحدي، وما حققه من نصر فيها على أعداء الإسلام. وعبّر عما تركته هذه الأحداث في نفسه من أشواق وذكريات جميلة أو مُرّة، مما جعلتنا نشاطره ونشاركه في مشاعره وأحاسيسه، بفضل صدق عواطفه ودقة تصويره لهذه الأحداث.

٥– استدعاء الشخصيات التاريخية في المقصورة

يعد التاريخ بصفة عامة منبعًا ثرًا من منابع الإلهام الشعري، الذي يعكس الشاعر من خلال الرجوع إليه روح العصر، ويعيد بناء الماضي وفق رؤية إنسانية معاصرة تكشف عن هموم الإنسان ومعاناته وطموحاته وأحلامه، وهذا يعني «أنّ الماضي يعيش في الحاضر، ويرتبط معه بعلاقة جدلية تعتمد

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:39 IRDT on Monday August 31st 2020

على التأثير والتأثر» (شرتح، ٢٠٠٨، العدد ١٠٨). إذن لابد لنا أن لانعتبر الحوادث التاريخية وصفاً جامداً بل « إنّه إدراك إنسان معاصر أو حديث لها، فليست هناك إذن صورة جامدة ثابتة لأية فترة من هذا الماضي» (ناصيف، لا تا: ٢٠٦-٢٠٥). فالتاريخ قابل للتجدد وصالح للتكرار وهو جزء من شخصية الفرد، والفرد من خلاله يفتخر بماضيه المجيد ويتحسر على بعض حوادثه المؤلمة، «فدلالة البطولة في قائدٍ معين، أو دلالة النصر في كسب معركة معينة تظل - بعد انتهاء الوجود الواقعي لذلك القائد أو تلك المعركة - باقية، وصالحة لأن تتكرّر من خلال مواقف جديدة وأحداث جديدة» (عشري زايد، ٢٠٠٦: ١٢٠)، وهناك شكلان للشعر المرتبط بمادة تاريخية أو أسطورية. أولاً: شكل يتقيد فيه الشاعر بوحدة الزمان والمكان التاريخيين للحدث، تقيداً كاملاً غير منفك، فتدور الأحداث وفقاً لمعطيات البيئة الزمانية والمكانية القديمة والمحدودة في الخارج منذ البداية. ويحاول بعض الشعراء اصطناع اللغة التاريخية الملائمة أيضاً. ثانياً: الشكل الذي يقوم الشاعر فيه بمزج التاريخ بالواقع الذي يعيش فيه، فيتداخلان ليقيما بنية موحدة (نجاة، ٢٠٠٢: ٣).

إنّ حازم القرطاجني في مقصورته تفاعل مع الشخصيات والأحداث التاريخية تفاعلاً حياً، واستدعاهم في شعره بهدف بيان تجاربهم المختلفة عبرةً لمعاصريه أو تشجيعاً لمتابعتهم إياهم. ويمكن اعتبار ظاهرة استدعاء الشخصيات التاريخية والأسطورية في مقصورة حازم، من الشكل الثاني في الأكثر؛ حيث وظّف الشاعر هذه الشخصيات في قصيدته ليعبّر عمّا يختلج في نفسه من أفكار وآراء وتجارب مختلفة. خاصة الشخصيات المستدعاة ضمن أبيات الحكمة والموعظة، التي أوردها الشاعر وأخبارها كشاهد أو دليل على ما يريد التعبير عنه، وستُذكر أمثلة على ذلك بالتفصيل.

٥-١ أبو عبد الله المستنصر (٦٢٥ - ٦٧٥ ه.ق)

أول شخصية نصادفها في المقصورة هو ممدوح الشاعر، أبو عبد الله المستنصر - أمير الدولة الحفصية المنفصلة عن الموحدين في شمال إفريقيا، سنة ٦٤٧ هـ. ق- الذي مدحه الشاعر لغرضين أساسيين؛ الأول: أنّه طلب منه إغاثة المسلمين بالأندلس من العدو العنود الذي بدأ يلتهم بلادهم ويقوض معالم الإسلام. والثاني: تهنئته لنشاطاته العمرانية، مثل جلبه المياه من جبل زغوان إلى تونس، وتجديده للحنايا (الجسور) و... حيث كلّفته هذه الأعمال أموالاً باهظة، فسعد الناس بأعماله:

وَطَوْدَ زَغْوَانَ دَعَوْتَ مَاءَهُ
فَلَمْ يَزِغْ عَنْ طَاعَةٍ ولا وَنَى
(المقصورة، رقم البيت: ٩٧).

وَ عَادَ فِي عَصْرِكُمُ كَعَهْدِهِ
فِي عَصْرِ مَنْ شَادَ الْحَنَايَا وحَنَا
(المقصورة، بيت: ١٠١).

فكان عصره عصر رخاء وأمن بما حققه من مشاريع اجتماعية واقتصادية عادت بالنفع على الأمة:

حَلَّ الْبَرَايَا مِنْ ذَرَاكَ جَنَّةً
بِكَوْثَرِ الْإِحْسَانِ فِيهَا يُرْتَوَى
(المقصورة، بيت: ٩٤).

ثم يمدحه بسمو نسبه الذي يرتقي إلى عمر بن الخطاب، فقال:

الْمُـــرْتَقي مِنْ نِسْبَةِ الْمَجْدِ الَّتِي
تَسْمُوا إِلَى الْفَارُوقِ أَعْلَى مُرْتَقَى
(المقصورة، بيت: ٥٥).

و ملكه لا يقاس إلا بملك سليمان النبي (ع)، فهو عُدّة الإسلام بما يحقق من نصر على الأعداء:

مُلْكٌ حَكَى مُلْكَ سُلَيْمَانَ الَّذِي
لَمْ يَتَّجِهْ لِغَيْرِهِ، ولا انْبَغَى
(المقصورة، بيت: ٨٢).

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:39 IRDT on Monday August 31st 2020

فنرى أنّ الشاعر يشيد بأعمال الممدوح العمرانية أولاً، ويذكر أنّ هذه النشاطات والإصلاحات العمرانية تُوجد الراحة والرخاء للناس. ويعتقد أنّ هذا التدبير والكفاية في الحكومة ورثها الممدوح عن جده عمر بن الخطاب، فلا بد أن يكون له من علو الهمة والإرادة القوية بعض ما كان لأجداده. ثم يبالغ في وصف اقتدار هذه الحكومة وعظمتها، حتى يشبهها بملك سليمان(ع) الذي لايتهيّأ مثله لأحد غيره.

كل هذه الأوصاف غرضها المدح، ولذلك نرى فيه مثل هذه المبالغات التي تطرد في أكثر قصائد المدح. وهذه القصيدة تشتمل على أغراض ومضامين شتى، إلا أنّ مدح المستنصر هو الغرض الرئيسي فيها، ولهذا ورد ذكره في عدة مواضع من القصيدة باسمه بشكل مباشر، أو لقبه أو كنيته، حتى لاينسى القارئ أنّ كل هذه المضامين المتفرقة يجمعها مدح هذا الحاكم المقتدر العادل.

٥-٢ حجّاج بن يوسف الثقفي (٩٥ – ١٤٩ هـ. ق)

أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي ولد في الطائف نحو سنة ٩٥ هـ. وكان رجل إدارة وشجاعة كما كان حاكماً مستبداً و من أدهى الدهاة وأعنفهم، وقد توفي سنة ١٤٩ هـ. وهو ذو نفسية شاذة تريد تكوين الذات على جثث القتلى (البطش)، وتستطيب سفك الدماء في سبيل غاية تنشدها؛ والوسيلة عندها جائزة أياً كانت والناس في نظرها قطيع غنم تساق بالعصا وتجز وتذبح وليس لهم أن يروا رأياً أو أن يعترضوا اعتراضاً ولا أن يحكموا في حق أو باطل (الفاخوري، ١٩٨٥: ٣٦٥). وذلك كما أخبر الأمام علي (ع) عنه وقال:

«أما والله لَيسلَّطن عليكم غلام ثقيف الذيال الميال؛ يأكل خَضِرتَكم، ويذيبُ شحمتَكم، إيهٍ أبا وذحةَ» (نهج البلاغة، خطبة ١١٦).

استدعى حازم شخصية الحجاج التاريخية في شعره، وباستحضاره لهذه الشخصية يريد أن يبين شجاعة أصحابه وإرادتهم القوية ويقايسهم مع الحجاج في الشجاعة ويقول: إنّهم يأبون أن يُقايسوا مع الحجاج بل إنّهم أكثر شجاعة من هذه الشخصية التاريخية وأقوى إرادةً:

مِنْ كُلِّ مَنْ يَعْتَدُّ أعْلَى نِسْبَةٍ
بِهَا يُجَلَّى أنْ يُقَالَ: ابْنُ جَلا
(المقصورة، بيت ٥٩٢).

و «ابن جلا» هو إشارة إلى هذا البيت لسحيم بن وثيل بن عمرو الشاعر المخضرم، الذي عاش في الجاهلية أربعين سنة وتوفي سنة ٦٠هـ. وقد جعله ابن سلام في الطبقة الثالثة من شعراء الإسلام:

أَنَا ابْنُ جَلا وطَلاّعُ الثَّنَايَا
مَتَى أَضَعُ الْعَمَامَةَ تَعْرِفُونِي

و قد عكس شخصية الحجاج بن يوسف في هذا البيت عند دخوله الكوفة. حيث قال: يا أهل الكوفة، إنّي لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها وإنّي لصاحبها، كأنّي أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى ... والله لأحزمنكم حزم السلمة، ولأضربنّكم ضرب غرائب الإبل ... (ابن سلاّم، ١٩٤٧ ج٢: ٥٧٦). وكما هو واضح فقد وظف الشاعر الشخصية المستدعاة ببعض أقوالها وهو البيت المذكور لسحيم بن وثيل الذي قرأه الحجاج في بداية كلامه في مسجد الكوفة. واستحضار هذه الشخصية بقوله هذا يحيي في ذاكرة المخاطب حكاية الحجاج وقساوته وشجاعته البالغة، وهكذا يريد الشاعر أن يدّعي أنّ أصحابه أشجع وأصلب من صاحب هذا القول المعروف، حيث لا يرضون بهذه المقارنة.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:39 IRDT on Monday August 31st 2020

٥-٣ عمرو بن سعيد (توفي ١٣ هـ. ق)

هو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية، وكان من حديثه أنّه تواطأ مع مروان أول قيامه، على أن يدعوَ الناس إلى مروان ويكون له الأمر من بعده، فقال له مروان: لا إلاّ من بعد خالد بن يزيد بن معاوية، فرضي عمرو بن سعيد فدعى الناس إلى بيعة مروان، ولما اجتمع على مروان أهل الشام دعا حسان بن مالك وهو رئيس قحطان بالشام، و لم يبايع حسان بن مالك مروان ولا يزيد بن معاوية قبله ولا معاوية إلا على حسب شروط أخذها له ولقومه، وذلك «أنّه شرط لهم أن يُعطى ألفان من قومه ألفين ألفين في كل عام ومن مات من هؤلاء الألفين قام ابنه موضعه أو ابن عمه، وأن تكون لهم صدور المجالس والنهي والأمر» (ر. الجاحظ، ١٩٦٠، ج١: ٣١٥)، فرضي مروان بذلك كما رضي يزيد ومعاوية. فلما أجمع عليه أهل الشام أحضر حسان بن مالك هذا وأرغبه وأرهبه، فقام حسان في الناس خطيبا ودعاهم إلى بيعة عبد الملك بعد مروان وعبد العزيز بعد عبد الملك، فلم يخالفه في ذلك أحد، فاستوثق الأمر لعبد الملك بعد مروان وقُتِلَ عمروبن سعيد سنة سبعين (م.ن).

استحضر حازم عمرو بن سعيد في مقصورته ذاكراً إياه بهدف الحكمة والموعظة الحسنة، ويدعو معاصريه إلى العبرة من أحداث الماضي وتجربة تلك الشخصية التاريخية. فالخيانة والتحايل مذمومان في أيّ زمان وفي أيّ مجتمع، ومن يخون الآخرين سوف يرى نتيجة عمله آجلاً أم عاجلاً. يقول حازم: لو اتبّع عمرو بن سعيد قومه و لم يخن عبد الملك و لم يهجم عليه، لم يكن عبد الملك ليقبض أو يقضي عليه:

وَ لَوْ غَدَا مُسَاعِداً لِقَوْمِهِ

فِي الرَّأْيِ عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ لَنَجَا

وَ لَمْ يَقُــلْ صَقْرُ بَنِي أُمَيَّةٍ

إذْ صَادَهُ كَيْداً (له) أطْرِقْ كَرَا!

(المقصورة، بيت ٧٨٣- ٧٨٤).

و هنا وظّف الشاعر الشخصية المستدعاة باسمها مباشرة، واتخذ منها وسيلة لتقديم فكرة معينة.

وعبد الملك بن مروان هو المراد من قوله «صقر بني أمية». والصقر هو البازيّ الذي يُصاد به لشهامته وظفره بكل من يطلبه، و واضح أن للفظة «صقر» دلالة سيميائية على الشجاعة والجرأة، والشاعر باختياره هذا اللقب يقصد هذه الدلالات. و«أطرق كرا» مثلٌ يُضرب للمعجب بنفسه، وفي الأصل كانت تقال هذه العبارة حينما يُصاد طائر الكَرْوان. وفي البيت مناسبة وائتلاف معنوي حيث ذكر الصقر مع الكرا وكلاهما من الطيور، ولو قال: ليث بني أمية، لم يكن فيه من المناسبة ما في قوله: «صقر بني أمية».

٥- ٤ جَحّاف بن حكيم السَّلَمي

هو الجحاف بن حكيم بن عاصم بن قيس بن سباع الخزاعي، وكان من حديثه أنّ عميراً بن الحباب السلمي وهو ابن عم الجحاف كان قد نهض في الفتنة التي كانت بالشام بسبب الزبيرية والمروانية، فلقي في بعض تلك المطاردات خيلاً لبني تغلب فقتلوه. وأتى الجحاف قومه فجمعهم إلى نفسه، فافتعل عهداً من عبد الملك على صدقات بكر وتغلب، فصحبه من قومه نحو ألف فارس، فسار بهم حتى نزل الرصافة، ثم كشف لهم أمره وقال لهم: إنّما هو النار أو العار، فمن يصبر فليتقدم، ومن يكره فليرجع. قالوا: نحن معك فيما تكون في خير أو شر. ثم سار إلى بني تغلب فصادف في طريقه أربع مئة منهم فقتلهم ومضى حتى انتهى إلى البشر، وهو ماء لبني تغلب، فصادف عليه جمعا من بني ثعلب فقتل منهم خمس مئة رجل (ر. المبرد، لا تا، ج٢: ٩٨).

إنّ حازم باطلاعه الواسع على ماضي هذا الشخص، استدعاه في مقصورته بوصفه شخصاً معجباً بنفسه ومتكبراً، و أنّه أجبر الناس على الحرب مع بني تغلب بحكمه المزيف من جانب مروان، وذلك حتى ينتقم من

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:39 IRDT on Monday August 31st 2020

قبيلة بني تغلب انتقاماً شخصياً. فالجحاف في رأي الشاعر رمزاً لهؤلاء الجبابرة الذين يتبعون أهواءهم ولا شيء يردعهم عن أعمالهم الجاهلية، حيث لا يضيرهم أن يُقتل الكثيرون كضحايا لمطامعهم. وهذه السِّنة الجاهلية في إتباع الناس لحكامهم دون النظر إلى كونهم على الحق أم الباطل، هي أيضاً حقيقة مرّة متواجدة في عصر حازم وفي كل العصور. ويحذّر حازم المخاطب من أن يكون في زمرة هؤلاء الجاهليين، تابعاً أم متبوعاً.

وَ اخْتَلَقَ الْجَحَّافُ عَهْداً حِيلَةً،

وكان ذَا دَهْيٍ متى يَخْلُقْ فَرَى[1]

و قاد جَيْشاً غَالِباً لِتَغْلِبٍ

قَدْ سَطَعَ النَّقْعُ عليه وهَبَا

حتّى أَضَاقَ بالرَّحُوبِ سيفه

بمن أَبَارَ منهُم رَحْبَ الْفَلا

وَ سَامَهُمْ بِالْبِشْرِ يَوْماً عَابِساً

أَضْحَكَ كُلَّ ضَبُعٍ ذَاتِ عَنَا

(المقصورة، الأبيات ٨٢١ -٨٢٤).

واستخدم الشاعر في استحضاره هذه الشخصية اسمه بشكل مباشر، لأنه هو المشهور عند الناس.

٥- ٥ عبد الرحمن بن الأشْعَث

و هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث المعروف بابن الأشج، استعمله الحجاج بن يوسف على سجستان وما حولها، لكنّه خلع طاعة الحجاج وسار إلى بلاد كرمان فدعى إلى خلع عبد الملك. وانقاد إلى طاعته أهل ري والجبال مما يلي الكوفة والبصرة وغيرهما. وسار الحجاج وابن الأشعث إلى البصرة، فكانت لهم حروب عظيمة هناك. فكتب الحجاج إلى عبد الملك يعلمه بخبر ابن الأشعث، ودخل ابن الأشعث الكوفة وكتب الحجاج إلى عبد الملك كتابا يذكر فيه جيوش ابن الأشعث وكثرتها ويستنجده ويسأله المدد، فأمدّه بالجيوش، والتقى الحجاج وعبد الرحمن بن الأشعث بدير الجماجم، وهو بظاهر الكوفة وذلك سنة اثنتين وثمانين، فكانت الحرب على ابن الأشعث، فمضى حتى انتهى إلى ملوك الهند. ولم يزل الحجاج يحتال في أمره إلى أن وجّه به إلى الحجاج ملك من ملوك الهند مع رسله بعد أن بذل له الحجاج أموالاً عظيمة. فلما سارت رسل الحجاج به باتوا على سطح مرتفع، وكان قد قُرن إلى رجل من بني تميم بسلسلة في أيديهما، وكان يُؤمَر وهو أسير. فلما كان جنح الليل قال للتميمي: قم معي لأبول. فلما قام معه أشرف على السطح ولفّ عليه ثوبه، فقال له التميمي: ما تصنع أيها الأمير؟ قال: الساعة أعلمك. ثم رمى بنفسه وبالتميمي معا فماتا كليهما (زركلي، ١٩٧٩ ج٣: ٣٢٣).

إنّ الشاعر في شعره يذكر لنا قضية عبدالرحمن بن الأشعث حينما تولى سيستان من قِبل الحجاج ، واستكبر واستبد حتى قُبض عليه، وفي النهاية رمى بنفسه وبرجل تميمي معه. رأى حازم في هذه القصة أيضاً حكمة تفيد المخاطب في حياته، وهي أنّ الطغيان والتكبر والتطاول عن الحق، مهما طالت، سوف تنتهي إلى الخذلان والذلة والهلاك. فابن الأشعث أساء فهم السلطة واليد المبسوطة، وعوضا عن استخدامها في خدمة الناس وعمارة البلاد، غرّ وبطر ورفع علم الطغيان أمام أولياء نعمته. ولكن كانت عاقبته هي الهزيمة والإحتقار والذلة، حيث قُبض عليه بعد هروبه إلى الهند وأُعيد مغلول اليدين، وفي النهاية رضي بأن يرمي بنفسه وبصاحبه التميمي معه من السطح:

١. فرى: كَذبَ وخَدَعَ.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:39 IRDT on Monday August 31st 2020

وَ لَفَّ إِذْ رَامَ الْهُوِيَّ من عَلٍ،
ثَوْباً عليه ابْنُ الْأَشَجِّ وهَوَى
مِنْ بَعدِ مَا شَبَّ لَظَى وقائعٍ
أَصْلَى بها غُلْبَ الأُسودِ واصْطَلَى
وَ ظَلَّ بِالدَّيْرِ يُساقِي أَكْؤُساً
بِكُلِّ إِبْرِيقٍ صَقيلٍ مُمْتَهَى
(المقصورة، الأبيات ٨٢٩ – ٨٣١).

وظّف صاحب المقصورة الشخصية المستدعاة بلقبه (ابن الأشج) لا باسمه المباشر، وكأنه ينظر إلى الدلالة السيميائية الكامنة وراء هذا اللقب. فـــ«الأشج» يقال لمن شُجت رأسه، أو من تبدو آثار الكسر على رأسه. فابن الأشعث مهما تهيأت له من أسباب القدرة والسلطة، إلاّ أنّه أصبح في نهاية الأمر منكسراً ذليلاً. ويدعو الشاعر مخاطبيه بأن يعتبروا من هذه القصص التاريخية وأن يجتنبوا مثل هذه التطاولات التي قد يزينها الشيطان لهم.

٥– ٦ زيد بن علي (ع) (٧٧ – ١٢٢ هـ. ق)

هو زيد بن علي بن الحسين (ع) وقد كان شجاعاً ناسكاً فصيحاً، من أبلغ بني هاشم، دخل يوماً على هشام بن عبد الملك بالرصافة وهو خليفة، فلما مثَلَ بين يديه لم ير موضعاً يجلس فيه فجلس حيث انتهى به مجلسه فقال: «يا أمير المؤمنين! ليس أحد يكبر إلا عن تقوى الله، ولا يصغر إلا دون تقوى الله».(ابن خلكان، لا تا، ج٦: ١١٠). فقال هشام: اسكت لا أم لك أنت الذي تحدث نفسك بالخلافة ولا تصلح لها لأنّك ابن أمة. فقال: يا أمير المؤمنين! قد كان إسماعيل بن إبراهيم(ع) ابن أمة، فلم يمنع ذلك إسماعيل أن بعثه الله نبيا وجعله للعرب أباً، وأخرج من صلبه خير ولد آدم محمد(ص). أفتقول لي هذا وأنا ابن علي وفاطمة رضي الله عنهما؟ قال له هشام: قم. فقال: إذاً لا تراني إلا حيث تكره. فخرج وهو يقول: «ما أحب أحداً الحياة إلا ذلّ» (م.ن). ثم مضى على وجهه إلى الكوفة، وخرج منها ومعه القرّاء والأشراف، ولما خرج زيد حاربه يوسف بن عمرو الثقفي، فانهزم أصحاب زيد وبقي في جماعة يسيرة يقاتل، وحال المساء بين الفريقين فانصرف زيد مثقلا بالجراح وقد أصابه سهم في جبهته، فاستُخرج النصل فمات من ساعته، فصلبه يوسف. وقد ذكر جماعة من الأخباريين أنّ زيداً أقام مصلوباً خمس سنين، وذلك بالكناسة بالكوفة إلى أن أُحرق، وكان إحراقه في زمن الوليد بن يزيد (ر.م.ن: ١١١– ١١٢).

كان لحازم اطلاعاً واسعاً على قيام زيد، واستدعى هذه الشخصية في مقصورته حتى يشير إلى هذه الحقيقة، أنّ من يطلب العزة يجب أن يتحمل الصعوبات والشرود للحصول عليها:

و قام زَيْدٌ من هشامٍ مُغْضَباً
قد شَرَّدَ الخوفُ به وقَدْ زَرَى
جَابَ الفلا من وَجَلٍ مُخْتَفِياً،
يَشْكُو – إذا تَقْرَعُهُ الْمَرْوُ – الْوَحَى
مُبْلِيَ عُـــذْرٍ فِي اعْتزازِ نَفْسِهِ،
حتى ابتلاه ربُّهُ بما ابْتَلَى
(المقصورة، رقم الأبيات ٨٣٢–٨٣٤).

وظّف حازم هذه الشخصية التراثية باسمه بشكل مباشر لكونه معروفاً بهذا الاسم، وبتوظيفه يريد أن يلقي فكره الخاص على المخاطب في الدفاع عنه، وبذكره المصائب والمتاعب التي عاناها زيد بن علي (ع) يؤثر تأثيراً أكثر على معاصريه. والحكمة التي تكمن في استدعاء هذه الشخصية هي أنّ الدفاع عن الحق واجب على كل إنسان؛ سواءً نجح في تحقيق هدفه، أم قُتل في سبيل الحصول عليه، ففي كلي الحالتين يحس الإنسان بأنه أدّى واجبه تجاه قضيته، فلا تؤذيه المصاعب التي يواجهها في سبيل نيله الهدف، بل يحسبها حقيرة قليلة بالنسبة للغاية التي ينشدها. فزيد

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:39 IRDT on Monday August 31st 2020

بن علي (ع) نموذج كامل من هؤلاء الذين بذلوا كل ما لديهم في سبيل العزة والشرف، عالماً بأن ما عند الله هو خير وأبقى.

٥- ٧ سيف بن ذي يَزَن (٥١٦ - ٥٧٤ م)

هو سيف بن ذي يزن الحميري، الذي كان من حديثه أنّ الحبشة كانت قد استولت على اليمن بعد حروب كثيرة كانت بينهم وبين حمير، إلا أن الحبشة انتصرت في نهاية الأمر و استولت على اليمن، وأغرق ذو نواس آخر ملوكهم نفسه في البحر أنفة من استيلاء الحبشة على ملكه وخوفاً من العار. فأقام الحبشة بعده باليمن اثنتين وسبعين سنة، فلما طال البلاء على أهل اليمن خرج سيف بن ذي يزن ... حتى وصل إلى النعمان بن المنذر وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق، فشكى إليه أمر الحبشة، ثم خرج معه فأدخله النعمان على كسرى ... ثم قال سيف: أيّها الملك غَلَبَنا على بلادنا الأغربة. فقال كسرى: أيّ الأغربة، الحبشة أم السند؟ فقال: بل الحبشة، فجئتك لتنصرني ويكون ملك بلادي لك ... فبعث كسرى من كان في سجونه حيث كانوا ثمان مئة رجل، واستعمل عليهم «وَهْرِز» وكان أفضلهم حسباً ونسباً. فخرجوا في ثمان سفن ... فلما تواقف الناس على مصافّهم قال وهرز: أروني مَلِكَهم. قالوا له: أترى رجلاً على الفيل عاقداً تاجه على رأسه، بين عينيه ياقوتة حمراء؟ قال: نعم. قالوا: ذلك ملكهم ... ثم وتّر قوسه، وكانت - فيما يزعمون - لا يوتّرها أحد غيره من شدّتها، ثم رماه فصك الياقوتة التي بين عينيه وخرج من قفاه، واستدارت الحبشة، وحملت عليهم الفرس وانهزموا فقتلوا وهربوا في كل اتجاه (ر. الطبري، لا تا، ج٢: ١١٧ - ١٢٠).

فقد استدعى الشاعر هذه الشخصية في شعره ليعبر عن إرادته القوية لأنّه يعتبر تلك الشخصية رمزاً للإرادة القوية، وهذا يتناسب تناسباً تاماً مع الفكرة التي يريد أن ينقلها إلى المخاطب. فباستحضاره لهذه الشخصية يوصي معاصريه بالحزم والقوة في إرادتهم:

لم يُخْلِ سَيْفٌ عَزْمَهُ مِنْ حَزْمِهِ
إذْ سَلَّ سَيْفَ الجِدِّ قِدْماً وانتضَى
سَمَا لِكِسْرَى بعد قَصْـــدِ قَيْصَرٍ
و لم يُقَصِّرْ في السُّرَى ولا أَلا
حتّى حَوَى مُلْكَ ذَمَارٍ، وحَمَى
من الذِّمَارِ الْمُسْتَبَاحِ مَا حَمَى
و قاد كـــلَّ مِحْرَبٍ حتى ارْتَقَى
مِنْ رَأْسِ غَمْدانَ بمحرابِ الدُّمَى
وشَرِبَ الكأسَ هنيـــئاً عاقداً
لِتَاجِهِ وجَرَّ ذَيْلاً وانْتَخَى[1]

(المقصورة، الأبيات: ٨٠١-٨٠٥).

يريد حازم أن يذكّر معاصريه بأنّ الدفاع عن الوطن واجب على الجميع وعلى الإنسان أن يتسلح في هذه المهمة بالحزم والعزم معاً، وأن لا يقصر في إنجاز مهمته لحظة، حتى يستطيع أن يؤدي واجبه تجاه الوطن وشرفه وعزته. اعتمد الشاعر في آلية استدعائه لهذه الشخصية على ذكر اسمه بشكل مباشر، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى معرفة الناس بتلك الشخصية باسمها.

و هناك شخصيات تاريخية أخرى لا مجال هنا لذكرها جميعاً، منها «أبوجبر بن عمرو الكندي» أحد ملوك اليمن، والذي يريد الشاعر باستحضاره أن يذكرنا بأن نوائب الدهر في مكمن لجميع الأفراد، الغني منهم والفقير، والملك منهم والمملوك. ومن هذه الشخصيات أيضاً «عمرو بن حارث بن مضاض الجرهمي» من ملوك قحطان في الجاهلية، و«بلال بن رباح الحبشي» مؤذن الرسول (ص)،

---

١. انتخى: تكبّرَ وافتخَرَ.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:39 IRDT on Monday August 31st 2020

واستخدمها الشاعر ليدل على أن البقاء في الوطن عزة للمرء، والهجرة من الوطن سبب لآلام الغربة ومعاناتها. واستحضر «حارث الرائش» أيضاً وهو من تبابعة اليمن، للدلالة على عظمة انتصارات الممدوح وأهميتها، لأنّ حارث الرائش هو رمز القدرة الفائقة، فشبه الشاعر ممدوحه بهذه الشخصية التاريخية، بل فضّله عليه. و هناك شخصيات كثيرة قد ذكرها حازم في مقصورته، لكننا سنكتفي بهذه الأمثلة القليلة لضيق المجال.

٦- استدعاء الشخصيات القصصية والأسطورية في المقصورة

إنّ أهمية الأسطورة تنبع من حضورها في الثقافة الجماعية، ومن كونها «تمثّل انعكاساً للاشعور الجمعي مما يجعل استدعاءها، يستدعي معها فضاءها التخييلي والوجداني ودلالاتها الرمزية الموحية» (نجم، ٢٠٠٩: ٥). تمثل الأسطورة منزلة هامة في كثير من العلوم الإنسانية الحديثة، حيث يرى بعض علماء «الأنثروبولوجيا» أنّها تعبير ديني اجتماعي، ويعد استقلال الأسطورة في الشعر العربي من أجرأ المواقف الثورية فيه وأبعدها أثراً حتى اليوم، ذلك «أنّ استعادة الرموز الوثنية واستخدامها في التعبير عن أوضاع الإنسان المسلم العربي قد يؤدي إلى رفع أكثر من حاجب» (نجاة، ٢٠٠٢: ٢).

إنّ استخدام الشاعر للأساطير يهدف إلى تحقيق غايات عديدة إذ يطمح فيها إلى تحقيق ذاتيته المكبوتة وإلى التصريح بتبرمه في أخطر القضايا وتقديم البديل لعالمه المتناقض ورفض قوانين القهر والصراع وكشف ما يخفيه في نفسه من انكسارات راهنة، «مستعيناً في ذلك كله بالرموز الفنية التي تجعل التجربة حية، تؤثر في المتلقي فتخرجه من قهر قناعته إلى تأمل جديد، يحاول مع الشاعر إعادة تشكيل العالم الأفضل» (بنت البراء، ١٩٩٨: ٢) ويكشف استدعاء الأسطورة أو الرمز الأسطوري عن قيمة الوظيفة الدلالية والجمالية، التي يحققها الرمز في سياق النص الشعري، سواء جاء هذا الإستدعاء في جزء من القصيدة، أو استغرقها كلها، لأن الشاعر يتجاوز مستوى مجرد ذكر الأسطورة أو الرمز الأسطوري إلى مستوى الإستلهام والتوظيف من خلال خلق سياق خاص يجسد تفاعل الأسطورة مع التجربة الشعرية (نجم، ٢٠٠٩: ٥). ومن ثم أصبحت مقصورة حازم تعتمد على هذه الرموز واستلهامها وقد أضاف الشاعر مادة ثقافية إنسانية جديدة إلى مقصورته كما سيأتي أمثلة ذلك لاحقا.

أمّا الجانب الأسطوري في الأدب العربي يأتي كأفقر المؤثرات إذا قيس بالتراثات الأسطورية للأمم الأخرى كما يؤكد ذلك الدكتور علي عشري زايد (٢٠٠٦: ١٢١)، لأن العقلية العربية في تلك العصور عقلية تجريبية عملية، لا تعني بغير الواقع المادي. أضف إلى ذلك موقف الإسلام الحاسم من العصر الجاهلي وحياة البداوة، وعدم وجود حروب أسطورية بين الأمة العربية وسواها من الأمم.

هناك شخصيات أسطورية استخدمها حازم القرطاجني لتبيين آرائه الحكيمة. ونسلقي نظرة عابرة إلى عدد من هولاء الشخصيات والوظيفة الفنية والدلالية التي تكمن في استحضارها.

٦- ١ قصة دُرَيد بن الصِّمَّة (توفي ٦٠٣ م).

دريد بن الصمة الجشمي عُمِّرَ حتي تجاوز المئة، وقد خطب الخنساء فردته فهجاها، وأدرك الإسلام ولكنه لم يسلم قيل إنه غزا مئة غزوة وما أخفق في واحدة منها (الفاخوري، ١٩٨٥: ٢٢٦). نشأ دريد في أسرة من الفرسان الشجعان. وكان أبوه قائد بني جشم في يوم النخلة في حرب الفجار وقتل في معركة تالية وكان هو فارس بني جشم وسيدهم وقائدهم

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:39 IRDT on Monday August 31st 2020

في الغزوات ودريد أشعر الشعراء الفرسان (ر.فروخ، ١٩٩٧: ٢٢٨-٢٢٩). غزا عبد الله بن الصمة بن الحارث أخو دريد بني جشم ونصر بن بكر بن هوازن، حتى غنم وساق الإبل. فلما كان بمنقطع اللوى قال: لا والله لا أبرح حتى انتقع وأربع وأجيل السهام. فقال له دريد: لا تفعل، فإنّ القوم لن يتركوا طلبك. فأبى ولجّ فأقام ونحر النقيعة، وقد أقعد رجلاً يربأ له. فقال عبد الله لربيئته: انظر ماذا ترى؟ فقال: أرى خيلاً عليها رجال كأنّهم الصبيان، رماحهم بين أذان خيولهم. قال هذه فزارة ولا بأس. ثم قال: انظر ماذا ترى؟ قال أرى قوما كأنّ وجوههم غمست في الجأب. قال هذا أشجع ليست بشيء. ثم قال: ماذا ترى؟ فقال: أرى قوما سود، يخدون الأرض بأقدامهم خدا ويخدونها برماحهم. قال عبد الله: هذه عبس، أتاكم الموت الزؤام فاثبتوا. فأقبلوا فالتقى القوم. وقد كان دريد نهاه أن يقيم وقال: إنّ القوم سيطلبونك ويتبعونك فأسرع حتى تأتي قومك، ولن تفوتك النقيعة فأبى عليه. فاقتتلوا قتالاً شديداً فطُعِن عبد الله بن الصمة فاستغاث بأخيه، فأقبل إليه أخوه، حتى طُعِنَ دريد فصُرِعَ وقُتِلَ عبد الله. فانصرف القوم عنهما صريعين لا يشُكّون في أنّ دريداً مقتول أيضاً. ولكنه كان حياً، وفي العام المقبل غزا دريد غطفان وفزارة وعبساً ومرة وأشجع وثعلبة، وقد هيّأ وقام مقام أخيه في بني جشم. فالتقوا بذات الرمث والأرطى فاقتتلوا قتالاً شديداً، فشدّ دريد على ذؤاب بن أسماء فقتله بأخيه، وكان من فرسانهم وسيداً مطاعا فيهم. (ر. ابن عبد ربه، ١٩٤٨، ج٥ :١٦٨-١٧٣).

هنا يستلهم الشاعر قصة دريد بن الصمة ويبين لنا صعوبة الوصول إلى الشرف والعزة. ويعتقد الشاعر بأنّ الإنسان لن يحصل على قمة العزة والمقام الرفيع إلاّ بعد تحمل الصعوبات، فمن طلب العلى سهر الليالي. وباستدعائه قصة دريد بن الصمة ودفاعه عن أخيه «أبي ذفافة» يبدي عقيدته ويؤثر على أهل زمانه ويشجعهم للمحاولة في سبيل المجد والعزة كما يؤكد على وجود هذا الحس (طلب العزة) وكونه مشتركاً بين البشر طوال التاريخ وهذا من أساسيات الخطاب الشعري لهذا الشاعر المتفرّد:

وَ طَاعَنَ الْخَيْلَ دريدٌ عن أبي
ذُفَافَةٍ حتّى انْثَنَى وهْوَ لَقَى
(المقصورة، بيت ٧٧٨).

يوظف الشاعر في استدعاء هذه الشخصية المعاني الدلالية للأسطورة للتعبير عن قضايا عصره وللتأثير على معاصريه وفي الحقيقة أنّها رمز لفكرة الشاعر هذه. ففي رأي حازم أن طريق العزة والفتوة والمروءة صعب، ويجب على المرء الجد والمثابرة وتحمّل المشاق والمتاعب، حتى يسجل اسمه في التاريخ كرمز للشجاعة والوفاء والتضحية. فدريد بن الصمة من تلك الشخصيات الفذة التي تستحق أن يكون أسوة ونموذجاً لمعاصري حازم ولجميع الناس في كل زمان ومكان.

٦-٢ قصة طَريفَة الكاهنة.

طريفة الكاهنة،كانت زوجة لعمرو بن عامر وكانت تسمى طريفة الخير، فانطلقت ذات يوم نحو زوجها في الحديقة، فظهرت لها من الماء سلحفاة وقعت على ظهرها تروم الإنقلاب فلا تستطيع، فتستعين بيديها وتحثو التراب على بطنها وجنبيها، فلما رأتها طريفة قعدت على الأرض إلى أن عادت السلحفاة إلى الماء. فمضت طريفة حتى دخلت على عمرو حين انتصف النهار في ساعة شديد حرها، فإذا الشجر تتكفّأ من غير ريح. فلما آتت عمراً كهنت فقالت: «و النور والظلماء، والأرض والسماء، إن السد لهالك، وليعودن الماء كما كان في الزمن السالك». قال: فما علامة ذلك؟ قالت: اذهب إلى السد، فإذا رأيت جرذاً يكثر بيديه الحفر ويقلب برجليه الصخر فاعلم أن قد وقع الأمر. وانطلق

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:39 IRDT on Monday August 31st 2020

عمرو إلى السد فإذا الجرذ يقلب برجليه صخرة ما يقلبها خمسون رجلاً. فقال لطريفة: متى ترين هلاك السد؟ قالت: فيما بينك وبين سبع سنين. قال: ففي أيها يكون؟ قالت: لا يعلمها إلا الله ولو علمه أحد لعلمته، ولكن لا تأتي عليّ ليلة فيما بيني وبين السبع سنين إلا ظننت أن هلاكه فيها أو في غدها ... فكتم عمرو ذلك وأخفاه وأجمع أن يبيع كل شيء له بأرض مأرب ... فلما اجتمعت له أثمانها أخبرهم بشأن سيل العرم.(ر.الحموي، لا تا، ج٥: ٣٤- ٣٨).

ففي النموذج نجد الشاعر يستدعي طريفة الكاهنة – تلك الأسطورة العربية القديمة – ليرمز بها إلى عدم مبالاة الناس إلى من يحذرهم من الأخطار:

وَ أَطْرَفَتْ طَرِيفةٌ فيما حَكَتْ
مِنْ نَبَإِ السُّدِّ وما منه انْهَوَى
فَاهَتْ بِقَوْلٍ مُعْتَزٍ لِلصِّدْقِ في
تمزيقِ قَحْطَانَ على الأرضِ عِزَى
فما نَجَا غيرُ امْرِئٍ صَدَّقَـــهَا
وأَهْلَكَ الباقِينَ سَيْلٌ قد طَغَى
وَ سَرَّحَ السُّـــدُّ عِنانَ جَامِحٍ
يَجِيشُ مِثْلَ البحرِ مِنْ كُلِّ عِنَا
(المقصورة، الأبيات ٧٩٥-٧٩٨).

هكذا يوظف الشاعر الشخصية الأسطورية باسمها مباشرة ويجعلها متفقة مع الغرض المنشود من توظيفها، ومن توظيف البناء الذي تقوم عليه حكايتها. يعتقد حازم أنّ عدم اكتراث الناس بالتذكير والتحذير من جانب ذوي الخبرة والتدبير، قد يكون سبباً في هلاك كثير من البشر. في حال أنّ العقل السليم يحكم أن يتجنب المرء من الخطر المحتمل. إلا أن البشر بشكل عام مصابون بقصر النظر وعدم المبالاة بما لا يرونه ماثلاً أمام أعينهم. ففي الأسطورة أيضاً نرى أنّه لم ينجو من الهلاك إلا من صدّق قول طريفة الكاهنة وسعى في دفع الخطر المحتمل.

٦- ٣ قصة عمرو بن المنذر (توفي ٥٦٩ م)

هو عمرو بن المنذر بن امرئ القيس، عم النعمان ابن المنذر، وهو الذي يدعى بابن هند؛ لأنّ أمه هند بنت الحارث بن عمرو الكندي آكل المرار (البغدادي، ١٩٦٧،ج١ :٣٢٥). وسمي محرقاً لحرقه بني تميم. فقد كان له ابن يقال له أسعد، فتبنّاه زرارة بن عُدُس فاسترضع في بني دارم، فشدّ عليه أحد بني عبد الله بن دارم فقتله، ثم هرب فلحق بمكة فحالف بها قريشاً، فغزا عمرو بن هند دارم طالباً بثأر الأسعد ابنه، وحلف ليحرقن منهم مئة. فتتبّعهم حتّى أحرق منهم تسعة وتسعين قذفهم في النار. ثم أراد أنّ يبرّ قسمه بعجوز منهم، ليكمّل العدّة، فلما أمر بها، مَرّ رجل من البراجم فاشتمّ رائحة القتار، فظن أن الملك يتخذ طعاماً، فعرّج إله فأتي به إليـــه فقال عمرو: «إن الشقي وافد البراجم» (الميداني، ١٩٧٢، ج١: ٩). ثم أمر به فقذف في النار.

استلـــهم حـــازم القرطاجني قصة عمـــرو بن المنذر واستدعاه في مقصورته بلقبه (المحرق)، لأنّ هذا اللقب يدل على أهم حدث في حياته وهو حرقه بني تميم. ثم ينقل لنا القصة باختصار:

وَ لَمْ يُقَصِّرْ في طِلابِ ثَأْرِهِ
مُحَرِّقٌ مِنْ بَعْدِهِمْ ولا ائتَلَى
و كان آلى أَنْ يُبِـــيء مئة
بواحدٍ، فلم يَمِنْ فيما ائْتَلَى
فَكَمَّـــلَ الْعِـــدَّةَ إلا وَاحِداً
لَمْ يَمْطُلِ الدَّهْرُ به ولا لَوَى

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:39 IRDT on Monday August 31st 2020

فَأَلْحَقَ الشَّقِيَّ بِالأَشْقَـــيْنِ إذ
أَطْمَعَهُ شَمُّ الْقُتَارِ فِي الْقِرَى
(المقصورة، الأبيات ٨١٧-٨٢٠).

ففي القصة نجد رجلاً جاهلياً يريد أنّ يقتل مئة شخص لاذنب لهم إلاّ أنّ واحداً منهم قتل ابناً له سهواً. وأيضاً نجد شخصية ثانوية وهي شخصية الرجل الذي ساقته أطماعه إلى مورد الهلاك؛ فعندما اشتم رائحة اللحم المشوي ظن أنّ هناك ضيافة فطمع في أخذ نصيبه من الطعام، فلم يفطن أنّه أيضاً سيُشوي في النار. فالعبرة التي يريد الشاعر أن ينقلها إلى المخاطب تكمن في المصير الذي ينتظر ذوي الأطماع الشرهين الذين لا يفكرون فيما ينتظرهم وراء ظواهر اللذات المادية. فحازم ينذر المخاطب من أن يكون ظالماً جاهلاً حاقداً مثل «عمرو بن المنذر» الذي يقتل مئة مقابل واحد، ومن أن يكون كالرجل الذي ساقه طمعه في وجبة طعام إلى الهلاك.

٦-٤ قصة كعب بن مامَة الإيادي.

كان كعب بن مامة الإيادي من أجواد العرب، ومن جوده أنه آثر الآخر على نفسه بالماء حتى هلك عطشاً. وذلك أنّه خرج في رفقة ومعه رجل من النمر بن قاسط. فقلّ عليهم الماء فدفعوا ما كان معهم من الماء إلى رجل يقسمه بينهم بالسوية، فكان الساقي إذا أراد أن يسقي كعباً حظّه من الماء نظر النمري إلى كعب نظرة راغب مستعطف، فكان كعب يقول للساقي: اسق أخاك النمري. فلم يزل يفعل ذلك حتى ضعفت قوته، وكانوا قد قربوا من موضع الماء، فَبُشِّرَ كعب بذلك فقيل له رِدْ فقد وصلت إلى الماء، فلم يكن به نهضة وخرّ ميتاً (ر.ابن عبد ربه، ج ١: ٢٩٣).

وفي هذا النموذج نجده يسترجع قصة تاريخية ومظهراً من مظاهر الجود بين العرب القدماء ويستدعي كعباً في شعره ليرمز إلى انتماء العرب العميق والعريق وكرامتهم وجودهم في التاريخ، ويضرب المثل للجود بهذه الشخصية. وهكذا يعظ حازم معاصريه من خلال أبياته الحكمية ويذكرهم بأنّ طرق الوصول إلى العزة والشرف صعب ومليء بالأخطار، وإن لم يكن كذلك لم نجد الفرق بين ضروب الناس المختلفة.

فقد تَصَدَّى لِلرَّدَى بِجُودِهِ
كَعْبٌ إلى أنْ مات مِنْ فَرْطِ الصَّدَى
(المقصورة، بيت ٧٧٥)

فكعب بن مامة افتدى بنفسه للوصول إلى قمة العزة والشرف وسجل اسمه للمضي في صفحة التاريخ. لأنّه آثر صديقه على نفسه بالماء في حين أنّه نفسه كان أحوج إلى الماء. ولكنه بذل حياته في سبيل الكرامة والمروءة وهكذا حصل على حياة أبدية في ذاكرة التاريخ، حيث استدعاه شاعر كحازم القرطاجني بعد مضي مئات الأعوام ليعرّفه كرمز للتضحية والفتوّة والمروءة. ووظّفه الشاعر باسمه مباشرة لأن الناس يعرفوه به.

٦-٥ قصة ربيعة بن المُكدَّم

ربيعة بن مكدّم، أحد بني فراس بن غَنْم،كان فارس العرب، وكان بنو فراس بن غنم مشهورين بالبسالة والفروسية. (القالي، لا تا، ج ٢: ٢٧٠-٢٧٣). يقول علي (ع) مخاطباً خيله يعاتبهم: لوددت أنّ لي بكل عشرة منكم رجلاً من بني فراس بن غنم، صرف الدينار بالدرهم. (الجاحظ، ١٩٦٠، ج٢: ٥٥-٥٦).

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:39 IRDT on Monday August 31st 2020

حدث حرب بين بني فراس وبني سليم، فانطلق ربيعة نحو العدو وقتل فارساً كان يقصد الظعن. ثم رماه نبيشة بن حبيب السلمي أو طعنه في عضده فلحق ربيعة بالظعن ... حتى انتهى إلى أمه أم سيار فقال لها: شدّي على يدي عصابة، فشدّت عليه أمه عصاباً، واستسقاها ماءً فقالت: لا، فإنك إن شربت الماء متَّ، فكُرَّ على القوم. فكرَّ راجعا فجعل يشد على القوم ونزف الدم حتى أثخن، فقال للظعن: أوضِعنَ ركابكنّ حتى تنتهين إلى أدنى بيوت الحي فإني سوف أقف دونكنّ لهم وأعتمد على رمحي، ولن يقدموا عليكم لمكاني. ففعلن فنجون وصرن إلى مأمنهنّ. فاعتمد على رمحه وهو واقف لهن على متن فرسه حتى بلغن مأمنهنّ. وقد مات ولم تقدم القوم عليه. فأمر نبيشة بن حبيب رجلاً كان معه أن يرمي فرسه، فرمى فرسه فقمصت فمال عنها ميتاً. فانصرفوا عنه وقد فاتهم الظعن وأخفق السلميون (ر.الإصبهاني، ۱۹٦۰ ج۱٦: ٥٦).

وقد كان ربيعة حمى ظعينة له في يوم غير هذا من دريد بن الصمة وفوارس له، وربيعة يومئذ وحده. وذلك أنّ دريداً بن الصمة خرج في فوارس من بني جشم، حتى إذا كانوا في واد لبني كنانة رأى دريد رجلاً في ناحية الوادي معه ظعينة، فقال لفارس من أصحابه: صح به، خلِّ الظعينة وانج بنفسك، وهم لا يعرفونه. فانتهى إليه الفارس فصاح ربيعة به وألحَّ عليه، فلما أبى ألقى زمام الراحلة وحمل عليه وصرعه وأخذ فرسه وأعطاه الظعينة، فبعث دريد فارساً آخر لينظر ما صنع صاحبه. فلما انتهى إليه ورأه صريعاً صاح به، فحمل ربيعة عليه فصرعه. فلما أبطأ على دريد بعث فارساً ثالثاً لينظر ما صنعا. فلما انتهى إليهما رأهما صريعين ونظر إليه يقود ظعينته ويجر رمحه فقال له: خلِّ سبيل الظعينة. فقال للظعينة: اقصدي قصد البيوت. ثم أقبل وحمل عليه فصرعه وانكسر رمحه. وارتاب دريد فلحق ربيعة وقد دنا من الحي، ووجد أصحابه قد قتلوا، فقال دريد: أيها الفارس، إنّ مثلك لا يقتل ولا أرى معك رمحاً، والخيل ثائرة بأصحابها فدونك هذا الرمح، فإنّي منصرف إلى أصحابي. فانصرف دريد وقال لأصحابه: إنّ فارس الظعينة قد حماها وقتل فرسانكم وانتزع رمحي ولا مطمع لكم فيه فانصرِفوا، فانصرف القوم.(م.ن، ج۱۱: ٦٦-٥۷).

ففي هذا النموذج يستلهم الشاعر التراث الإنساني في قصة ربيعة بن المكدم وكأنه يتمنى أن يقاوم هذا الإنسان العصري أيضا في الدفاع عن شرفه وكرامته إلى هذا الحد، وباستدعائه هذه الشخصية يريد إيصال هذه القيم الإجتماعية والثقافية لمتلقيه. لذلك اختار الشخصية التي حكى التاريخ عن دورها الفاعل وما أنتجته حتى أصبحت رمزاً عربياً للدفاع عن الشرف والكرامة فيقول:

وَ قَدْ تَصَدَّى لِلرَّدَى رَبيعَةٌ
حتَّى حَمَى مِنْ ظُعْنِهِ ما قد حَمَى

(المقصورة، رقم البيت ۷۷۷).

وظف القرطاجني الشخصية المستدعاة باسمها، ليبيّن لمعاصريه أنّه هو الذي حارب وقاوم في الدفاع عن شرفه وكرامته مقاومة لا حدَّ لها. حيث عرّض نفسه للهلاك، ولكن لم يتح لأيّ رجل أن يقترب من نواميسه، فهذا نموذج آخر من الشخصيات المثالية التي تصلح لأن تكون أسوة للإنسان إلى الأبد.

٦-٦ قصة زَرقاء اليَمامَة.

يمامة بنت مرّة الطسمية (زرقاء جو)، كانت إمرأة من قبيلة جديس يضرب بها المثل لحدة بصرها. وهناك مثل في الأدب العربي يقول (أبصر من زرقاء) (دهخدا، ج۹، ص۱۲۸۳٤). و ذلك أنّه حدث نزاع بين طسم وجديس فاستغاث رجل من طسم اسمه رباح بن مرة بحسان بن تبع ملك اليمن.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:39 IRDT on Monday August 31st 2020

فأمر جنوده بالمسير فساروا، حتى إذا كان بينهم وبين اليمامة ثلاث ليال قال رباح بن مرة لحسان: أبيت اللعن إنّ لي أختاً متزوجة في جديس تبصر الراكب على مسيرة ثلاث ليال، وأنا أخاف أن تنذر قومها بك. فأمر كل رجل أن يقلع شجرة من الأرض ويضعها أمامه، فأمرهم حسان بذلك ثم ساروا. وكان اسم أخت رباح، يمامة بنت مرّة، فنظرت يمامة من منظر لها على رأس حصن فقالت: يا جديس! لقد سارت إليكم الشجر. فقالوا لها: وما ذلك؟ قالت: إنّي أرى شجراً من ورائها بشر،... فكذبوها وغفلوا عن التأهب للحرب، فما لبثوا أن صبّحهم حسان بعد ثلاث ليال، فاستباح اليمامة قتلاً وسبياً (ر. مسعودي، ١٩٧٣ ج ١: ٤٢).

والشخصية النسائية والتراثية الوحيدة التي وردت باللقب في المقصورة هي زرقاء العينين أو زرقاء اليمامة، والتي استدعاها القرطاجنى، وكان يشير إلى ما تميزت به من التنبؤ بالغيب ويربط الشاعر معاصريه بزرقاء اليمامة الشخصية الأسطورية، التي يُضرب بها المثل في قوة البصر، والتي تناولت قصتها كتب الأدب العربي منذ الجاهلية. وكأن الشاعر يريد أن يجعل هذه الشخصية رمزاً للذين لهم دراية وتدبير، كما يريد أن يبيّن أنّ إطاعة الفرد العالم والمتدبر في الأمور واجب على الجميع ولبيان فكرته هذه يشير إلى قصة زرقاء التي تنبأت بهجوم العدو، ولكن قومها لم يهتموا بما أخبرهم به فخسروا خسراناً مبيناً:

قَدْ كَــذَّبَ الزّرقاءَ قَوْمٌ حَســبُوا
مَقَالَهَا الصَّادِقَ زُوراً مُفْتَرَى
سَمَتْ بِعَيْنَيْهَا إلى الجيش الذي
تَدَرَّعَ الأشجارَ كَيْدًا واكْتَسَى
قالت – و لم تَكْذِبْ – أرَى مُقْبِلَةً
إلَيْكُمُ يا قومُ أشْجَارَ الْفَلا
وَ أبْصَرَتْ ما لم تُحَــقِّقْ عينُهَا
صُورتَهُ في كَفِّ شَخْصٍ قد نَأى
قالت أراه خَاصِفاً أوْ آكِلاً
لِكَتِفٍ، لَهْفِي على ما قد أتَى!
فَصُبِّــحَتْ ديارُ من كَذَّبَهَا
بِجَحْفَلٍ قد عَاثَ فيها وعَثا
(المقصورة، الأبيات:٧٨٨– ٧٩٣).

وزرقاء اليمامة تُعرف بلقبها عند القارئ العربي، ولا يُعرف اسمها لإنّ لقبها هو الأكثر شهرة وذيوعاً لهذه الشخصية العربية التراثية، إذن وظفها الشاعر أيضاً بلقبها. وربما يكون السبب في شهرتها بهذا اللقب، أنّ «الزرقاء» هي نعت لعينيها، وشهرتها أيضا بسبب حدة نظرها. فقد استدعى الشاعر هذه الشخصية الأسطورية ليذّكر المخاطب مرة أخرى بأنّه من الممكن دفع الأخطار المحتملة.

٦–٧ قصة زَبراء الكاهنة

كانت زبراء أمة من مولدات العرب وكانت لعجوز لبني رئام، اسمها خويلة. فاجتمع بنو رئام ذات يوم في عرس لهم، وقد كانوا سبعون رجلاً كلهم شجعان فطعموا وأقبلوا على شرابهم. وكانت زبراء كاهنة فقالت لخويلة: انطلقي بنا إلى قومك أنذرهم، فأقبلت خويلة تتوكأ على زبراء، فلما أبصرها القوم قاموا إجلالاً لها، فقالت يا ثمر الأكباد، ويا أنداد الأولاد، وشجا الحساد، هذه زبراء تخبركم عن أنباء، قبل انحسار الظلماء بالمؤيد الشنعاء، فاسمعوا ما تقول. قالوا: وما تقولين يا زبراء؟ فقالت زبراء: «و اللوح الخافق، والليل الغاسق، والصباح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوادق، إنّ شجر الوادي ليأدو ختلاً ويحرق أنياباً عصلاً، وإنّ صخر الطود لينذر ثكلاً، لا تجدون عنه معلاً، فقالت: مهلاً يا بني الأعزة، والله إنّي لأشم ذفر الرجال تحت

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:39 IRDT on Monday August 31st 2020

الحديد. فقال لها فتى منهم يقال له هذيل بن منقذ: يا خذاق، والله ما تشمين إلا دَفْرَ إبطيك. فانصرفت عنهم وارتاب القوم، فانصرف منهم أربعون رجلاً وبقي ثلاثون، فرقدوا في مشربهم، وطرقتهم بنو داهن وبنو ناعب فقتلوهم أجمعين» (القالي، ج ١: ١٢٦-١٢٨).

لم يكتف الشاعر لبيان وجوب الإعتماد على أولي الألباب والمتدبرين بذكر قصة طريفة الكاهنة وزرقاء اليمامة فحسب بل استلهم قصة زبراء الكاهنة ليؤكد على هذه الفكرة التي تدور في أعماقه ويريد نقلها للجميع، فقد أشار إلى هذه القصة واستدعى هذه الشخصية المشهورة عند العرب في شعره واتكأ اتكاءً واضحاً عليها، وباطلاعه الواسع على ماضي هذه الشخصية، وقف عندها وقال:

وَ قَدْ جَفَا زَبْرَاءَ حين صَدَّقَتْ

في ما به قد نَطَقَتْ مَنْ قد جَفَا

(المقصورة، بيت: ٧٩٤)

هكذا وظف الشاعر هذه الشخصية باسمها، طلب من معاصريه أن يعتبروا منها، وقال إن الذين لم يعتمدوا على أقوال ذوى العقول الخبراء، قد هلكوا جميعاً! مثلما رأينا في قصة طريفة وسيل العرم، وفي قصة زرقاء اليمامة وخدعة الطسميين. فحازم يؤكد مرة أخرى على أنّ العقل السليم يحكم بأن يحتاط المرء حينما يحس بخطر يمكن أن يتعرض له.

٧- النتيجة

استدعى الشاعر العديد من الشخصيات التاريخية والأسطورية من تراث العرب في سياقات مختلفة للدلالة على معان متعددة، موظفاً إياها في سياقه الشعري. إنّ استدعاء هذه الشخصيات بكثافتها الرمزية، من خلال مستويات التناص وآلياته المختلفة، في تجربة صاحب المقصورة (حازم)، ينبع من طبيعة الرؤية التي تقدمها هذه التجربة، على المستوى الفكري الخاص لشاعرنا الذي اتخذ شخصياته من الحضارة العربية القديمة وتفاعل مع هذا التراث التاريخي والأسطوري من خلال انتقاله من الماضي إلى الحاضر، والشخصيات كلها تتفاعل مع تجربة الشاعر، حيث استدعاها تحت تأثير أسباب عاطفية نفسية.

في الحقيقة إنّ حازم اتخذ هذه الشخصيات التاريخية (كحارث الرائش، عمرو بن حارث بن مضاض الجرهمي، بلال بن رباح الحبشي، أبوالجبر بن عمرو الكندي، حجاج بن يوسف الثقفي، سيف بن ذي يزن، و...) والأسطورية (كزبراء الكاهنة، زرقاء اليمامة، دريد بن الصمة، ربيعة بن المكدّم، كعب بن مامة الأيادي، و...) كوسيلة يلقي بها نظرته الخاصة وأفكاره على متلقيه. والأسماء الأسطورية والتاريخية المستدعاة في المقصورة، غالباً ما تتركز على الشجاعة والجود والدعوة إلى الحق والحرية والدفاع عن الشرف والكرامة واجتناب الظلم و... وتصبح رموزاً لهذه المعاني الإنسانية، يقدمها النص لتلك الشخصيات. وهكذا يجعل حازم نصه ذا قيمة توثيقية ويأتي برموز من الموروث التليد ويجعلها برهاناً لحاضره المجيد، ويمكن اعتبار ظاهرة استدعاء الشخصيات التاريخية والأسطورية في مقصورة حازم من نوع «التعبير بالشخصيات»، حيث وظّف الشاعر هذه الشخصيات في قصيدته ليعبّر عمّا يختلج في نفسه من أفكار وآراء وتجارب مختلفة. خاصة الشخصيات المستدعاة ضمن أبيات الحكمة والموعظة، التي أوردها الشاعر وأخبارها كشاهد أو دليل على ما يريد التعبير عنه.

ويلاحظ من خلال المقال أن صيغة الإسم المباشر (علم الشخص) قد حققت أعلى معدل بين معدلات استدعاء العلم بأقسامه الثلاثة (الاسم المباشر/ الكنية/ اللقب) فيقصد الشاعر استحضار الشخصية المقصودة عند المتلقي دون الجانب الوصفي وذلك تقوية للدلالة والقاء المعني.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:39 IRDT on Monday August 31st 2020

المصادر والمآخذ

العربية:

[١] ابن خلكان، (لا تا)، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

[٢] ابن عبد ربه، محمد، ١٩٤٨، العقد الفريد، تحقيق: المجموعة، الطبعة الثانية.

[٣] ابن هشام، (لا تا)، السيرة، تحقيق وشرح: المجموعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

[٤] الإصبهاني، أبوالفرج، ١٩٦٠، الأغاني، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، طبعة دار الثقافة، بيروت.

[٥] الأندلسي، ابن حزم ، (لا تا)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، الطبعة الرابعة.

[٦] البغدادي، عبد القادر بن عمر، ١٩٦٧، خزانة الأدب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

[٧] بنت البراء، مباركة، ١٩٩٨، الشعر الموريتاني الحديث من ١٩٧٠ إلى ١٩٩٥ ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب.

[٨] الجاحظ، أبو عمر، ١٩٦٠، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون.

[٩] الجمحي، ابن سلام، ١٩٤٧، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر.

[١٠] حاوي، خليل، ١٩٦٢، من حديث أجراه معه غسّان كنفاني، مجلّة المعرفة السورية، العدد الخامس، تموز.

[١١] الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت، معجم البلدان، (لا تا)، دار إحياء التراث العربي.

[١٢] دهخدا، علي أكبر، لغتنامه.

[١٣] زركلي، خير الدين، ١٩٧٩، الأعلام، الطبعة الرابعة.

[١٤] السويكت، عبد الله بن خليفة، ٢٠٠٩، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر السعودي من عام ١٣٥١هـ. إلى ١٤٢٦ هـ. دراسة تحليلية ونقدية. http://www.al-jazirah.com

[١٥] شرتح، عصام، ٢٠٠٨، استدعاء شخصيَّة المعريّ في الشعر العربي الحديث والمعاصر (بين الواقع والتجريد)، مجلة التراث العربي – مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب– دمشق، العدد ١٠٨، السنة السابعة والعشرون، ذو الحجة١٤٢٨. http://www.awu-dam.org/trath/108/turath108-017.htm

[١٦] الشريف السبتي، أبو القاسم محمد، ١٩٩٧، رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة، تحقيق وشرح: محمد الحجوي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.

[١٧] الشريف الرضي، نهج البلاغة.

[١٨] ضيف، شوقي، (لا تا)، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، الأندلس، دارالمعارف، الطبعة الثالثة.

[١٩] طبري، محمد بن جرير، (لا تا)، تاريخ الأمم والملوك، دار القاموس الحديث.

[٢٠] عسيري، أحمد، ٢٠١٠، استدعاء التراث في الشعر العربي. http://www.al-watan.online

[٢١] عشري زايد، علي، ٢٠٠٦، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

[٢٢] فارس، عيسي ورامية محفوض ونبيل سالم سلمان، ٢٠٠٥، مظاهر الطبيعة في شعر حازم القرطاجني، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية – سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٢٧) العدد (٢).

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:39 IRDT on Monday August 31st 2020

[٢٣] الفاخوري، حنا، ١٩٨٥، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم) ، دارالجيل، بيروت- لبنان.

[٢٤] فروخ، عمر، ١٩٩٧، تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم)، الجزء الأول، دارالعلم للملايين، الطبعة السابعة.

[٢٥] قالي البغدادي، أبو علي اسماعيل، (لا تا)، الأمالي، دار الكتب المصرية.

[٢٦] القرطاجني، حازم، ١٩٦٤، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب الخوجة، دار الكتب الشرقية.

[٢٧] المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، (لا تا)، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبوالفضل ابراهيم، دار النهضة، مصر.

[٢٨] مسعودي، علي بن الحسين، ١٩٧٣، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة.

[٢٩] ناصيف، مصطفي، (لا تا)، دراسة الأدب العربي، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة.

[٣٠] نجاة، محمود أحمد، ٢٠٠٢، استلهام التراث في الشعر. http://www.ofouq.com

[٣١] نجم، مفيد، ٢٠٠٩، التناص الأسطوري في شعر محمود درويش. http://www.nizwa.com

[٣٢] نيشابوري، أبوالفضل أحمد بن محمد، ١٩٧٢، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الثالثة، دار الفكر.

[٣٣] ياسين السليماني، أحمد (كلية الآداب – جامعة صنعاء)، ٢٠٠٧، تقنية القناع الشعري، مجلة « غيمان» مجلة فصلية تعني بالكتابة الجديدة ، العدد الثالث http://www.ghaiman.net/desat/issue_03/taknaiat_elkina3_elsh3ri.htm

الفارسية:

[٣٤] ميرزايي، فرامرز وناهيد نصيحت، ١٣٨٤، روش گفتمان كاوي شعر (أسلوب تحليل الخطاب الشعري)، مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها، العدد الرابع، شتاء.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:39 IRDT on Monday August 31st 2020

فراخوانی شخصیت‌های تاریخی واسطوره‌ای در مقصورهٔ حازم قرطاجنی.

علی باقر طاهری‌نیا[۱]، مریم رحمتی ترکاش‌وند[۲]، روح‌الله مهدیان طرقبه[۳]

تاریخ دریافت: ۱۳۸۹/۸/۱۸ تاریخ پذیرش: ۱۳۹۰/۲/۱۲

فراخوانی شخصیت‌های تاریخی در ادبیات عرب، یکی از شیوه‌های ارتباط ادیب با میراث تاریخی و فرهنگی است. رویدادها و تحولات تاریخی یکی از عناصر شکل دهنده‌ی شخصیت هر انسان است، و باعث افتخار و یا حسرت او نسبت به گذشته‌ی ملت خود می‌شود. اثر ادبی می‌تواند این ارتباط را میان مخاطب و میراث تاریخی و اسطوری برقرار کند؛ چراکه تاریخ با تمام فراز و فرود خود، قابلیت تجدید و تکرار را دارد.

حازم قرطاجنی در مقصوره‌ی خود، بخش‌هایی از تاریخ عرب را به شکلی هنرمندانه به نمایش گذاشته، شخصیت‌های تاریخی واسطوری را از تمدن‌های قدیم عربی فراخوانده، و آن‌ها را با اسماء، القاب و یا برخی حوادث مهم زندگی‌شان به‌کار گرفته است. هدف حازم از این فراخوانی، بیان اندیشه‌ها وتجربیات خود، از روزنه‌ی این رمزهای تاریخی است.

این مقاله با روش تاریخی و توصیفی به بررسی مقصوره حازم قرطاجنی می‌پردازد. نتیجه تحقیق حاکی از آن است که از جمله شخصیت‌های تاریخی واسطوری که حازم قرطاجنی از آن‌ها نقابی ساخته تا از پس آن اندیشه‌ی خود را به مخاطب انتقال دهد، می‌توان به سیف بن ذی یزن، عمروبن سعید، درید بن صمهٔ، جحاف بن حکیم، حجاج بن یوسف، زیدبن علی، عبدالرحمن بن أشعث، عمروبن منذر، زرقاء یمامهٔ، زبراء کاهن و... اشاره کرد. کاربرد فراوان این‌گونه شخصیت‌های تاریخی واسطوری به‌وسیله حازم قرطاجنی، نشانه‌ی توجه او به تاریخ عرب و اساطیر کهن آن، در خلال آفرینش ادبی است.

کلید واژگان: فراخوانی شخصیت، حازم قرطاجنی، میراث تاریخی، مقصوره

---

۱. دانشیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه بو علی سینا btaheriniya@basu.ac.ir

۲. دانشجوی دکتری گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه بو علی سینا

۳. دانشجوی دکتری گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه بو علی سینا